إزابيل إبرهارت، أو سي محمود السعدي
المقاربة الأنثو–ذكورية

د/ سليم بتقة
جامعة بسكرة

الملخص :

يرتكز هذا المقال على كتابات "إيزابيل ايبرهارت" والتي تدخل ضمن أدب الرحلة، حيث أنها مدينة في ذلك لكثافة وأناقة رسائلها الجميلة، تلك الرسائل التي لا تقل قيمة بالنسبة لنا الجزائريين عن عملها الإبداعي، وإضافة إلى خصائصها الأدبية، تعتبر تلك الرسائل منجما للمعلومات المتعلقة بعادات بلد عرف بالمقاومة والشجاعة، ولكن أيضا بالعنف والتمسك بالقديم.

الشكل الذكوري "لإيزابيل"، إرادتها في اللباس كرجل، و اتخاذها لاسم السكان الأصليين: محمود السعدي كل ذلك يتوافق مع تصميمها على التخفي في صحراء أبعد ما تكون خالية من الحياة الصاخبة. في ذلك الوقت، و بالنسبة لامرأة تجوب الصحراء لا يمكن إلا أن يجلب لها المشاكل من جانب عصابات الطرق، أو أن تكون فريسة جنسية. إذن كان ينبغي على "إيزابيل ايبرهارت" أن تحتال للقيام بعملها الصحافي.

Résumé :

Cet article s'appuie sur les écrits d'Isabelle Eberhardt cette voyageuse infatigable entrée dans le célèbre cercle des écrivains du voyage, elle le doit à la densité et à l'élégance de ses belles lettres. Celles-ci sont d'autant plus précieuses pour nous Algériens que son œuvre, en plus de ses qualités littéraires, est une mine d'informations sur les mœurs du pays faites de résistances et courage mais aussi de violences et d'archaïsmes.

La "posture masculine" d'Isabel sa volonté de s'habiller en homme de se faire appeler par un nom et prénom autochtones : Mahmoud Essadi correspondent à une volonté de passer «inaperçue» dans le désert qui est loin d'être vide de vie grouillante. A l'époque, pour une femme errer dans le désert ne pouvait que lui attirer des ennuis de la part de bandits de grands chemins ou bien tout simplement être une proie sexuelle Il fallait donc à Isabelle ruser pour faire son métier de journaliste.

مقدمة:

((طعم التنكر، هو الحاجة إلى الهروب نحو الذات وأن تصبح آخرا، وأن تزعم بأنك آخر، وأن تعتقد أنك آخر...دون أن تعتقد في الواقع ذلك)). روجر كايليوس Roger Caillios

السفر مع "إيزابيل ابرهارت" Isabelle Eberhardt معناه أن تتجهز للطريق، أن تحلم بالذهاب دون مخطط سفر، متسلحا بعصا و كيس، بفكرة البداوة، والسير يمثل معبرا للفكر نفسه، ((الحق الذي يهتم قلة من المثقفين بالمطالبة به، هو الحق في التسكع، والتشرد، ومع ذلك، فالتشرد هو العبور، والحياة طوال الطريق، إنها الحرية)). "إيزابيل ابرهارت" (كتابات على الرمال، ص:27)

فعل الكتابة يحمل "ايزابيل ابرهارت" على السفر، إلى الحركة، لأن الكتابة بالنسبة لها لا تعني الإنجاز، ولكن دائما المد نحو... يعني التواجد في الطريق نحو المجهول، التقدم في ما سيكونه (الآخر)...

نحن الآن في منتصف القرن التاسع عشر، أمام عالم يعج بالتحول، مع حدث اسمه الرأسمالية والصناعة. المحبطون من كل أحلام التقدم مثل "بيار لوتي" يتحركون بواسطة الهروب من حاضر حقير ودنيء والذهاب بعيدا عن النواحي المألوفة، المشروع الأدبي، الأمل المجنون في إيجاد السعادة، هذه الأسباب الثلاثة تجتمع لتأخذهم نحو مكان آخر مزين بالتأثيرات الرومانسية والغرائبية. عمل "اليزابيت ابرهارت" كله يخبرنا بهذا السعي الذي لم يعرف له مصطلحا، عمل غير مستكمل: أن تكون في مكان آخر، دائما في مكان آخر ((هناك)) ((مجهولا، غريبا، وفي بلده في كل مكان)). والذي سوف يحملها ما بين 1899 و 1903 على قطع أرض تونس، الجزائر، والمغرب مرتدية لباسا غريبا، بمظهر شاب من الأهالي بشاشية (طربوش) ومعطف وسروال فرنسي، وسبحة عربية، والذهاب بعيدا إلى المعلوم، باتجاه ((الطريق المستقيم)) الإسلام الذي اعتنقته.

تقول عنها "سيمون دوبفوار"Simone de Beauvoir:((عندما تزوجت ايزابيل انطلقت إلى الصحراء بزي الرجال على ظهر جوادها، لم تشعر بعدم الاحترام تجاه ذاتها. من الصعب القول لماذا اختارت ايزابيل هذا الزي، قد يكون ذلك قد راق لها أو اعتمدته للدفاع عن نفسها. إن الزي الرجالي قياسا إلى الزي النسائي شيء مصطنع، لكنه قياسا

إلى الزي النسائي أكثر راحة. جورج صاند مثلا، كانت مثل ايزابيل ترتدي ملابس الرجال)).

إذن لم تكن الأولى ولا الأخيرة التي لبست كرجل لتعيش كما أرادت العيش، وقد بدا لها ذلك أكثر ملاءمة... ، إرادة الكتابة بصيغة الذكور، فتح مجالا لتساؤلات مثيرة حول موقفها الوجودي والاجتماعي والديني. امرأة نعم لكن امرأة تتخفى في زي الرجل، ما السبب؟ هل هو رفض لأنوثتها، رفض لحالة النساء، في ثقافتها الأصلية وثقافتها بالاختيار ؟ للإجابة عن جملة هذه التساؤلات، لجأنا إلى نصوص مختلفة للكاتبة وخاصة (يوميات) *Journaliers* ، (في بلد الرمال) *Au pays des sables* و(الجنوب الوهراني) *Sud Oranais* ولكن دون الامتناع عن العودة إلى القصص أو (المتشرد) *Trimardeur* ، الرواية التي لم تنهها.

بداية "اليوميات الأولى" كانت هكذا وفيها إشارة إلى أن هذا "اللباس" هو بالموازاة إلباس للحكي: ((كالياري، أول جانفي 1900:

أنا وحيدة، جالسة قبالة الاتساع الرمادي للبحر... أنا وحيدة.. وحيدة كما كنت دائماً وفي كل مكان، كما سوف أكون دائما من خلال الكون الكبير، الساحر والمخيب وحيدة، ، ورائي، عالم من خيبة الآمال، أوهام ميتة و ذكريات من يوم لآخر تزداد بعدا ، أصبحت تقريبا غير واقعية. أنا وحيدة، وأنا أحلم...)). (ص:9)

كرونولوجيا:

17 فيفري 1877، ولدت في جنيف إيزابيل ويلهلمين ماري ايبرهارت، الابنة الطبيعية ناتالي شارلوت، دوروثي موردير المزدادة ايبرهارت، أرملة كارلوويتش دو موردير. بروتستانتية المذهب ، يهودية الأصل غادرت ناتالي روسيا واستقرت في هذه المدينة مع أطفالها الثلاثة: نيكولاس، أولغا، فلاديمير في عام 1872 ،حيث أنجبت الطفل الرابع أوغسطين، الذي سيكون الأخ المحبوب لإيزابيل. معلمهم ألكسندر تروفيموسكي Alexandre Trophimowsky(البابا السابق للكنيسة الأرثوذكسية) التحق بناتالي في المنفى. شهادة ميلاد إيزابيل ليس بها إشارة إلى الأب. طفولة ومراهقة إيزابيل قضتها في "الفيلا الجديدة" يومياتها تعطي أصداء إيجابية. إنها تنتمي إلى هذا المجتمع الهامشي الصغير، وعندما تخرج فمن أجل أن تختلط مع أوساط المهاجرين، كانت جينيف ملاذا للاجئين السياسيين من أوروبا وشباب أتراك فروا من الاستبداد الممارس عليهم في

بلادهم . كان تعليمها جديدا مقارنة بالتعليم السائد في وقتها آنذاك، ذلك أنها تلقت تعليما تحرريا، فقد كان تروفيموسكي تلميذا لباكونين Bakounine (1870). كما كتبت عنها سيمون رزوقSimone Rezzoug : ((إيزابيل ايبرهارت تربت في هذا السياق، و تجاهله، يعني المخاطرة بفهم خاطئ للأفكار التي تظهر في عملها، ككراهيتها للحضارة، ومطالبها بالاستقلال. ووفقا للأفكار الثورية في ذلك الوقت، فقد تربت من قبل "والدها" مثل صبي، لا تمييز بين الجنسين وفقا للتعاليم التحررية. لقد علمها نشر الخشب، ركوب الحصان؛ اللغة الروسية، اللغة الألمانية، و اللاتينية، و دروس في اللغة العربية. هذا التصور للتعليم ينسجم مع التوجيهات التحررية: الثوريون اهتموا مبكرا جداً بمشاكل التعليم، ونقل الروح البشرية جميعها لتتأسس على "تحد السلطة، وفي احترام الحرية والإنسانية" (ميخائيل باكونين) (1)

في ماي 1897، انتقلت إيزابيل وأمها إلى بونة (مدينة عنابة حاليا) وهناك تموت أمها في 28 نوفمبر 1897 ودفنت تحت اسم فاطمة منوبية. في 15 ماي من عام 1899، ألكسندر تروفيموسكي يتوفى بدوره.

في 4 أوت 1900 إيزابيل ايبرهارت تصل الوادي و كانت قد زارته قبل بضعة أشهر. بسرعة كبيرة، التقت سليمان اهني، مشير فرقة الخيالة spahis . في نفس سنة ، انضمت إلى الزاوية القادرية. إنها فترة غنية خاصة من حياتها، ولكنها توقفت بسبب محاولة الاغتيال التي تعرضت لها في 29 جانفي 1901، حيث أصيبت بجروح في بهيمة Behima من طرف أحد مريدي الزاوية التيجانية بقمار وكادت إثرها أن تلقى حتفها، نقلت إلى المستشفى في الوادي. يوم 25 فيفري 1901، غادرت الوادي باتجاه باتنة حيث تم تحويل سليمان.

وفي 4 جوان 1901، حضرت محاكمة المعتدي في قسنطينة. في 18 جويلية، تم إعلامها بأمر الطرد، كونها رعية روسية. في 20 جويلية، غادرت الجزائر باتجاه مرسيليا حيث انضم إليها سليمان اهني في 28 أوت. وتزوجا في 17 أكتوبر.

في 15 جانفي 1902 وصلت إلى بونة، ثم ذهبت إلى الجزائر العاصمة حيث تعرفت على عائلة "باريكند" Barrucand . أواخر جوان–أوائل جويلية، زارت زاوية الهامل، في بوسعادةــ حيث التقت لالة زينب مرابطة maraboute الزاوية الرحمانية والتي سوف تلتقيها مرة أخرى، فقد أعجبت بها كثيرا.

في 7 جويلية، انتقلت إلى تنس Ténès حيث تم تعيين سليمان خوجة على البلدية المختلطة. وفيها تعرفت على "روبرت راندو"* Robert Randau (2)بعدها قامت برحلات متتالية إلى الجزائر العاصمة لأن جو تنس يكون أحيانا ثقيلا، خاصة عندما لا تقوم بخرجات إلى الدوار والقبائل.

في أفريل 1903، اتهمت من طرف الاتحاد الجمهوري بارتكاب تجاوزات في الدوار والدعاية

المناهضة لفرنسا، مما أضطر زوجها سليمان اهني إلى الاستقالة من منصبه.

في سبتمبر عام 1903، عملت كمراسلة حرب في "الجنوب ألوهراني" لدى جريدة *Dépêche Algérienne* بطلب من "فيكتور براكند" Victor Barrucandوفي الأخبار . في أكتوبر 1903 تعرفت على بيار ليوتي*Pierre Lyautey . وأمضت فصل الشتاء في فقيق (قصر متواجد بالحدود الجزائرية المغربية).

في ماي عام 1904، انتقلت إلى الجنوب الغربي وقضت فترة الصيف في عين الصفراء وبشار

وفي زاوية القنادسة. ولكن في أواخر فصل الصيف، مرضت، حيث تخلت عن فكرة الذهاب إلى الجنوب وعادت إلى عين الصفراء حيث تم إسعافها بالمستشفى.

يوم 21 أكتوبر 1904، غادرت "إيزابيل" المستشفى والتحقت بسليمان في منزل كانت قد استأجرته على حافة الوادي. ولكن فيضانا مفاجئا دفنها تحت الأنقاض؛ وتمكن سليمان من الفرار. جثة "إيزابيل" عثر عليها بعد ذلك بيومين، ودفنت في مقبرة المسلمين. في المنزل وبالقرب من الجثة، عثر على حقيبة احتوت على مخطوطات البعض منها أتلفه الطين وقد عهد بها إلى "فيكتور باريكند".

لعبة الذكر والأنثى:

((إنه بالبحث عن المستحيل حقق المرء دائما الممكن. الذين اقتصروا على ما بدا لهم ممكنا لم يتقدموا خطوة واحدة)). باكونين

سفريات "إيزابيل ايبرهارت" في الجزائر أو في تونس، في تلك الفترة ، كانت خمسا. كلها لديها تشكيل جانبي مختلف. الأولى، مع والدتها، هذه الأخيرة عملت على أن تجعل البلد مألوفا لابنتها ؛ حيث عاشت في أحياء المسلمين حياة مدنية غير عادية تماما بالنسبة لذلك الوقت. وكانت الإقامة الثانية سعي للبحث عن شيء لم تسمه بعد، آنذاك كان يجب

أن تدخل في حداد مزدوج عن والدتها و عن "تروفيموفسكي". والثالثة هو تحقيقها، كعاشقة، مكتشفة مع سليمان الحب الذي غمرها، و كمريدة للزاوية، مبتدئة بالدخول في حياة روحيانية تناسبها ، والتي ستظل تحتفظ بسرها، و كمقيمة في بلد يتلاءم والحياة الصوفية والبدوية التي أرادت أن تكون حياتها. كل ذلك لم يكن ليتوقف إلا بسبب الهجوم والمحاكمة، ودون الهجوم والإبعاد، كان بالإمكان أن يرسم ذلك مكوث "إيزابيل ايبرهارت" في البلد.

الإقامة الرابعة ، دامت خمسة عشر يوما، أقصرها وأكثرها يأسا هو الحكم السابق للطرد

من الجزائر باعتبارها رعية روسية. وأخيراً، الإقامة الخامسة إقامتها النهائية في الجزائر حيث استطاعت العودة بعد زواجها مع اهني سليمان. وجدت المرأة الشابة تدريجيا ومع مزيد من اليقين وسطها، وأسلوب حياتها، روحانيتها والحاجة إلى الكتابة، سواء الأدبية أو المذكرات.(3)

الأمر المؤكد والملفت للنظر بالنسبة هذه المرأة الشابة ذات الست والعشرين ربيعا: هو خصوصية ظروفها الحياتية، وهكذا في الهامل، 29 يناير 1903، دونت في يومياتها:

((يبدو أنه في حياتي، لن أذهب إلا مرتين في كل مكان: تونس، الساحل، جنيف، باريس، سوف... من يدري إذا كانت رحلتي هذه ليست الأخيرة إلى بوسعادة؟)). (ص: 258)

في جميع هذه الرحلات، كانت إيزابيل ترتدي ملابس رجالية (لم تكن متخفية) ، في صورة فارس عربي. في البداية، اختارت ثوبا ذكوريا حضريا تونسيا ثم بسرعة كبيرة، عمدت إلى ملابس الجنوب الكبير. هذا المظهر الذي سمح لها بالذهاب إلى أي مكان تريده، سبب لها العديد من التهجم والقدح في الوسط الكولونيالي.

فترة الإقامة بتنس أين أتيحت لها فرصة القضاء على حملة التشهير والمضايقة الشرسة، تركت وثيقة ينبغي ذكرها في مجملها لفهم مدى الكراهية التي يمكن أن تثيرها هذه "اللعبة" على العلامات الجنسية. محرر الاتحاد الجمهوري ، وواحد من الذين قرروا القيام بحملة ضد "إيزابيل ايبرهارت" وآخرون من أصدقائه في وقت الانتخابات، كتب في ماي 1903:

((سيدة ملثمة، عينة مثيرة من الجنس الذي نرغب في فاطمة الجميلة و لويز ميشال ، تكرمت بريشة خفيفة مداعبة إياها في جريدة توركو *Le Turco* ، الاتحاد الجمهوري

L'Union Républicaine. هذا المخلوق اللطيف يدعي أنه لاحظ أننا لم نرد على رسالة من يده البيضاء على عنواننا، ويقدم لنا، في عشرين سطرا، مائة موضوع من الدهشة.

توقع باسم السيدة محمود سعدي، شارع "أورلينسفيل" Orléansville تنس، ايبرهارت. بيد أنه تم اخطارنا بواسطة رسالة بإشعار بتقديم تفسيرات للسيدة اهني، فيلا المنظر الجميل، بمصطفى (بلدية بنواحي العاصمة)، محررة في الواقع مديرة جريدة الأخبار. فما العلاقة التي تجمع مدام محمود توركو، مدام اهني، الأخبار، آنسة ايبرهارت البرقية؟... هل هناك طبعة جديدة من سر "الثالوث المقدس"؟ وعندما تكتب لنا مدام اهني من مصطفى، ما الذي يجب علينا تجاه مدام محمود من تنس؟ كثيراً ما صادفنا في مكاتب الطباعة زاميث Zamith السجائر في الشفاه، شابا من الأهالي، أمردا وبجبهة محلقة، يرتدي معطفا أسودا بفخر على الكتف ويقرع أحذية حمراء جميلة (اسمه محمود، قال السيد بركان، عند بداية الأخبار إنه خادمي).

هل هذا الخادم متعاون؟، هل هذا الشاب امرأة، أم آنسة، أم سيدة؟، هل هذه السيدة تدعى السيدة محمود أم مدام اهني؟ هل تسكن "أورلينسفيل" أم مصطفى؟ لغز محير! كما أنه لا يمكن إيداع الرسائل على النحو التالي: السيد X عاشرا، آنسة Y...، أو مدام ....Z، في مكان ما! لذا سيظل الأمر على ما هو عليه حتى نهتدي إلى عنوانها الصحيح، وكذا جنسها واسمها الحقيقي. بين محمود اهني، ايبرهارت، بين رجل وامرأة، بين سيدة وآنسة بين تنس ومصطفى، هناك الكثير من الفروق والمسافات حتى نكتفي بالتقريب)). (4)

اليوم حيث عرفنا الأسماء المستعارة المختلفة جيدا للكاتبة والاسم الذي كانت اختارته لنفسها في حياتها الجزائرية، وأولئك الذين أحاطوا بها قدموا لها عن طيب خاطر،، بواسطة هذا المقال، درجة العنف والحقد الذي كان باستطاعتها تحمله ولمهاجمتها، تحاملوا على هذا التذبذب بين المذكر والمؤنث.

في بعض الأحيان، على العكس من ذلك، هذا المظهر المذكر، كان مثيرا وفاتنا. روبرت راندو Robert Randau يروى ذكريات "فرناند كارايول"Fernand Carayol ، موظف "بالبلدية المختلطة" والذي تذكر جيدا وصول الزوجين إلى تنس، مساء يوم 7 يوليه 1902:

((محدثي احتفظ في ذاكرته بمشهد وصول الشابة الروسية عام 1902،في ليلة من الليالي، إلى فندق الفنون، حيث كان أحد النزلاء. نزلت من المركبة التي كانت تجرها الخيول الخمسة، والتي تصل كل يوم أورليانسفيل بتنس عند الساعة السابعة مساء، كان متواجدا على الطاولة نفسها (...) عندما عبر زوجان من الأهالي بملابس نظيفة الغرفة. شخص ما لاحظ، وهو يرى أحد المسافرين وكان أمردا وله أيدي ناعمة: انظر، يبدو وكأنه امرأة. الخادمة التي كانت تقوم على خدمة الزبائن همست: نعم، إنها امرأة، ولكنها سجلت بياناتها في المكتب تحت اسم سي محمود. علموا حتى أنها كانت بطلة تلك المأساة في الجنوب الجزائري، فقد قرأوا عنها مؤخرا في الصحف)).(5)

في أفريل 1903دعي الصحفيون إلى حفل استقبال خلال الزيارة التي قام بها رئيس الجمهورية "لوبيه" Loubet إلى الجزائر ، وكانت "إيزابيل ايبرهارت" رفقة "بريكان"من المدعوين:

((وجودها بين هؤلاء، في زي أنيق لفارس عربي، أثار حركة سريعة من الفضول لدى الصحفيين المحيطين بها؛ لقد غمروها بالأسئلة والتي كانت أكثرها سخيفة. أبدت رغبتها في وضع حد لأساطير ملحمة وضعها المعلنون أنفسهم، المتحمسون لإخبار القارئ بوجود في الجزائر زميل مسلم من الجنس الجميل يظهر في زي أحد الأهالي. لقد رفضت أن تعتبر نفسها بطلة في مسلسل، نجت من محاولة اغتيال في صحراء غادره؛ لقد كتبت رسالة عن حياتها ومغامراتها، عبارة عن وثيقة تم إدراجها في 23 أفريل 1903 في يومية *La Petite Gironde*). (6)

آخر صورة ذكرت، هذه المرة من طرفها، في رسالة وجهتها إلى أخيها "أوغستين"، Augustinسنة 1900: ((خلال أيام، سيحل شيخي، سي محمد الهاشمي، شقيق نايب العقلية العظيمة التي لم ألتق مثلها مطلقا بتقرت، وسوف نذهب لإحضاره سليمان وأنا. مسحوق البارود سيتكلم، يوم وصول المرابط الكبير والخيول ستتسابق في سهل تيكسيبت تحت الوادي! من بين الفرسان سترى واحدا ممتطيا حصانا مندفعا أشقرا مذهبا... ، الفارس يرتدي قاندورة و برنوسا أبيضا على رأسه عمامة بيضاء وعلى رقبته سبحة سوداء للزاوية القادرية، اليد اليمنى يلفها منديل أحمر لشد اللجام جيدا، سوف يكون ذلك الفارس محمود السعدي، نجل الشيخ الأبيض الكبير، ابن سيدي إبراهيم)).(7)

إنه أخيرا زوجها الذي سوف يفك بطريقة أكثر بساطة هذه اللعبة. لقد جاء يقدم نفسه لـــ"روبير راندو" بصفة خوجة البلدية المختلطة أين تم تعيينه على رأسها حديثا: ((أقدم لكم سي محمود سعدي (...) هذا هو اسمه الحربي، في الواقع إنها السيدة اهني زوجتي)). (8)

ارتداء الزي الرجالي، ثمن الحرية

"إيزابيل" في الجزائر العاصمة، في 23 جويلية 1900، تدون في مذكراتها: ((بعد توقف قصير جداً مع "يوجين" Eugène في غرفتي، غادر هو، وذهبت، وحدي للاكتشاف، ولكن قبعتي أزعجتني تجتثني من الحياة الاسلامية. لذا عدت، وضعت طربوشي، وخرجت مرة أخرى مع أحمد الخادم، أولاً إلى الجماعة الكبيرة (...) حييت وكيل المسجد (...) تناولت الحساء عند الحاج محمد، في ركن شارع جنينة. هنا، أحسست بكثافة بفرحة العودة، فرحة تواجدي هنا، مرة أخرى على هذه الأرض الأفريقية التي ربطتني بها ليس فقط أفضل ذكريات حياتي، لكن هذا الجذب الفريد الذي شعرت به قبل أن أراه. كنت سعيداً هنا، عند طاولة المطعم، شعور لا يمكن تحديده...، لا استطيع أن أشعر به في أماكن أخرى كما في أماكن أفريقيا.)) (ص:54-55)

واضح أن "إيزابيل" وهي في زي الأوروبية، تبدو أكثر في زي امرأة، لم تكن "ايبرهارت" لتفعل ما وصفته لنا هنا، وهو أمر ضروري بالنسبة إليها. ثاني تقرير مطول "الجنوب وهران"، هو عبارة عن مخطوط عثر عليه في الوحل أثناء فيضان عين الصفراء أين لقيت حتفها في أكتوبر 1904، يشير كيف أن المظهر الذكوري يحمي ويمكن من العيش كما ينبغي للمرء أن يعيش.

إيزابيل ايبرهارت في باريقوPerrégaux (المحمدية) تنتظر قطارها الثاني نحو الجنوب: ((أثناء الليل ذهبت لأستلقي على حصير أمام مقهى عربي (...) تذوقت لذة عميقة حياة البداوة، فرحت بكوني وحيدة، مجهولة تحت البرنوس والعمامة الإسلامية، وبمشاهدتي في سلام اليوم وهو ينقضي في ألوان حمراء في هذه القرية حيث لا شيء يشدني، والتي غادرتها عند حلول الظلام)) (ص:12)

في (في بلد الرمال) *Au pays des sables* ، العقد الذي يربط ايبرهارت بصحيفتها وبقرائها والمعرفة التي لديهم حول أصلها حساسة. أيضا، المقاطع التي تتحدث فيها عن نفسها جاءت عموما بصيغة المؤنث. فكم عدد المرات التي لا نجد فيها: ((كنت

جالسة.. كنت وحيدة...)) ، (ص:88)، أو((كنت مستندة على الحائط الصغير ...)) (ص:115)

بينما عندما تتجه للكتابة، فبالمذكر لتشير إلى الغموض الذي تريد أن تحدثه فيهم لدى أولئك الذين ليسوا على علم. وهكذا، عندما وصلت إلى حجرة مقل اتجهت نحو ((بدوي أسمر ، من النوع العربي الجميل للهضاب العليا:

((على الرغم من الأحجبة البيضاء، فإنني عرفت بسهولة أنه جندي، في زي مدني أو *موخازني.*mokhazni* فاتجهت إليه بالخطاب، لأنه يوحي بالثقة. رويت له حكاية شرح له فيها هويتي وتواجودي، وأصبحنا أصدقاء على الفور بتلك الألفة البسيطة المعروفة لدى المسلمين (...)إذا أردت، تعال معي (...)سوف ننام في وادي ديرميل (...) وسوف نعود هنا لقطار الجنوب. (...) في القلعة، مشهد فكاهي يحدث؛ رئيس المركز ، برتبة نقيب في الفيلق، يراقبني، تفاجأ وهو لا يفهم العلاقة التي توجد بين بطاقة امرأة صحفية والشاب العربي الذي يمدها له. وانتهينا في الحين إلى تفسير الأمر(...) الطيب (وهو الموخازني)، الذي يؤمن إيمانا راسخا بحقيقة سي محمود القسنطيني (...))). (ص:23-24)

هكذا نراها تمر دون عناء بصفتها "مراسل حرب"، وهو أقل تعقيدا لمعرفتها بالقوات الاستعمارية، من "مراسل الجنوب" حيث القدرة على التغلغل تتضاعف." عندما أشارت إلى زيارتها إلى مرابط marabout المنطقة حيث لم يستطع أي ضابط أو مسيحي دخولها، أكدت: ((أنا مسلمة، وقد قادوني إليها، لأن سيدي سليمان هو المعالج الكبير للمرضى)) (ص:39). هذا بالطبع يعطي "ورقة" جميلة جدا لم تنشر بعد من صحفي.

يجتاز هذا التناقض أنثى/ ذكر مجموع الجنوب الوهراني *Sud Oranais* . لقد عسكرت مع الرجال لأنهم اعتبروها واحدا منهم؛ وهكذا، لا شكوك على جانب الخيمة حيث تنام، ولا المعنى الذي ينبغي سماعه "أخويا":

((الجو دافئ داخل الخيمة، في تكوم الرجال نصف نائمين، مستندين على الركب أو على الأكتاف ، أخويا. في النصف الآخر من الخيمة، خلف الستائر ذات اللمعان الرائع للصوف الأحمر، إنها لمسات النسوة الرقيقة وهمساتهن التي فتنت رفيقي بشدة. بيد أنه يسعى إلى البقاء هادئا دون ان يلحظ ما يكشف عن مجاورة النساء)). (ص:28)

في نص موال، "المرابطون" Les Marabouts و بعدما وصفت وعرضت للجو السائد بين مدخني المخدرات أين اندمجت في "نحن"، شرعت في واحدة من انطلاقاتها الغنائية الكبيرة ، مرة أخرى في المذكر لأن ما تطالب به لم يكن لتعيشه إلا بقناع الجنس الآخر: ((ياللذة منازل الصدفة حيث أنا !، مهموم، وحيد، مهمش من قبل الجميع، إننا نتوهم! ظل صديق لمرافئ مؤقتة، التوقفات الطويلة على درب مشمس لمتشرد حر!حلاوة لا حدود لها من أحلام صافية، في أعماق الصمت، في بلاد الإسلام!)). (ص: 47)

الليلة الأخيرة التي قضتها مع فرقة الخيالة، ليلة رمضانية ، طلبوا منها بإصرار البقاء: ((قالوا سي محمود، ابق بيننا لقد تعودنا عليك؛ نحن إخوانكم الآن، وسوف نأسف إذا ذهبت، لأنك صبي شجاع، لأنك أكلت الخبز والملح، و امتطيت الخيل معنا. إنهم يعرفون جيدا، بفضولهم الأوروبي أن سي محمود امرأة. ولكن، مع التحفظ العربي الجميل، قالوا أن هذا لا يعنيهم ، وأنه من غير اللائق التلميح بذلك، واستمروا في معاملتي كما كان الحال في أوائل الأيام كصديقة مثقفة وأكثر قليلاً)). (ص:116)

الجزء الثاني من "الجنوب الوهراني" جاء متأخر، ويحمل على ربيع وصيف 1904 حيث قضتهما ايبرهارت بين عين الصفراء و القنادسة. التدوينات الشخصية جاءت بصيغة المذكر: ((كنت سعيدا (...) مسرورا)). غالباً ما كانت التعليقات ماكرة، مثلا عندما تذكر هذه الكلمات لجنود الجوقةlégionnaires : ((إنه جميل، هذا الصبحي spahi الصغير ...)). (ص:160)

عند خروجها من زاوية القنادسة، الغموض يعد أمرا حيويا لمشروعها ومراجعتها الأدبية، في مظهر كله ذكوري، و سر أنثوي: ((دليلي كرر لهم ما قاله قدور أو بركة له بأنني سي محمود ولد علي، شاب متعلم تونسي يسافر من زاوية إلى أخرى طلبا للعلم...)). (ص:177)

بعد قبولها، قالت: ((أنا وحيدة)) (ص:180) ولكن في كافة التعاملات مع الآخرين، هي بالضرورة طالب شاب. وعندما يتعلق الأمر بتغيير زيها مرة أخرى فمن أجل الانتقال من زي جزائري غير مستساغ في نخيل القنادسة، إلى زي مغربي: ((في الواقع، المغاربة يمقتون الجزائريين، لأنهم يعتبرونهم خونة)) (ص:184) ، وقد استعملت هذه المعلومة ابتداء من معتقداتها الخاصة:

((وهكذا في هذا المساء، تحولت للخروج فيه إلى مغربي، تاركاً عدة الفرسان الجزائريين الثقيلة من أجل جلاّبة بيضاء خفيفة، حذاء أصفر وضع فيه القدمان الحافيتان و العمامة الصغيرة البيضاء دون حجاب، وقد لفت حول الشاشية)). (ص:185)

عند ما كان ينتابها الخوف أحياناً بفعل عزلتها، خصوصا بعد أن ازدادت عليها الحمى وأجبرتها على العودة إلى عين الصفراء، عبرت عن هذا في مقطع أين امتزج فيه المؤنث للتعبير عن همومها الحقيقية: ((كنت وحيدة، وحيدة في هذا الركن المفقود من الأرض المغربية...))، والمذكر، لتجاوز هذه الحال العارضة نحو نوع من الحقيقة العامة:((أن تكون وحيدا، هو أن تكون حراً، والحرية هي السعادة الوحيدة الضرورية لطبيعتي. ومن ثم قلت لنفسي أن وحدتي كانت شيئا جيدا)). (ص:244)

نرى إذن، في هذا التحقيق المزدوج عن الجنوب الوهراني، كم أن الزي والمظهر– إيزابيل لها كل حركية الذكورة وعادات المسلمين–، مرتبطان بكيفية التعبير بصيغة المذكر أو المؤنث.

سرد متذبذب بين جنس و آخر:

قد رأينا سابقا أن اليوميات تبدأ بتعبير ذكوري كثيف. إذا كانت طريقة التعبير هذه مهيمنة، فهي ليست مع ذلك منتظمة بالقدر الذي يمكننا القول به. ومثال واحد يظهر التذبذب من نوع إلى آخر بدلاً من اختيار ثابت للمذكر ، في 15 أوت 1901 بمرسيليا، وهي في حالة جد يائسة، كتبت في بضعة أسطر:

((أذهب متشردا وحرا، كما كنت من قبل حتى بثمن أي معاناة جديدة!" (...) أركب متواضعا مجهولا وأفر، أفر أخيرا إلى الأبد (...) ومن المؤكد أنني لم آت إلى هنا فقط لأبكي، لأتأسف، لأناقش في الظلام وهمومه، لأعاني، لكي أكون سجينة! متى يحين الرحيل المتألق ؟)). (ص: 191)

في (بلاد الرمال)، مقاطع قصيرة مستوحاة من إقامتها الطويلة الأولى في الصحراء، في عام 1902، نجد نفس التنوع من جنس لآخر. بما أن هذه النصوص هي أخبار صحفية نشرت في الصحافة الجزائرية، وفي فرنسا يمكن الاعتقاد بأن اللعبة في جزئها التضليلي والغامض بالنسبة للقراء، أكثر وعيا من كتاباتها الشخصية. نأخذ بعض الأمثلة التي تكشف لنا عن ذلك في النصوص الأربعة الأولى من المجموعة.

في النص الأول ترسل الصحفية حبها الروحي للصحراء، لأنها تكتب وهي مبعدة عن وطنها "بالاختيار" وفي ((ذكرى حنينية لمنفية)) (ص:14). النص التالي يستحضر قطعة رفيعة ملونة وجميلة من الأدب الغرائبي التي تحسن ايبرهارت رسمها جيدا، لأنها لم تكن مجرد مراقبة ولكن "فاعلة" إذن فهي ترى التفاصيل التي لا تراها عين خارجية. في هذا التقرير، تفضل "نحن" التي تخفي الفرق الجنسي لصالح المذكر، وفي نفس الوقت، ترتبط مع الحاجة إلى الاندماج. كما تفضل أيضا الأفعال النشطة. جملة واحدة تترك "رؤية" حضورها في المذكر في نشاط لا يمكن تصوره بالنسبة لامرأة:

((كل الجنون يتواصل، كل رعب الخيول أيضا يعطي أخيرا انطلاقة حرة ، إنهم يفرون، يفرون كما لو أنه لا يجب عليهم التوقف أبدا. سكر جميع هذه النفوس العنيفة والصادقة أخذني، و، ككل الفرسان الآخرين أكملت سكري في السباق المجنون)). (ص: 21).

النص الثالث، (ليلة رمضان) مهم جداً لأنه يستحضر، باحتشام كبير، أيام الحب الأولى مع سليمان ، وهو كله بصيغة المؤنث: ((أين كنت ذهبت لأفتقد ذات صباح)) (ص: 26) ((وأنا، بكآبة، مددت صيامي، مفتونة بمشهد فريد من نوعه للوادي)). (ص:27) ((هنا، على هذا الحجر، كنت جالسة، في ليل مظلم)) وكذلك:

((هو أيضا من هذا المنزل الهادئ لصلاح بن فليبا، بعد أن قضينا ليلة مجنونة في 28 جانفي في المداعبات من هذا الطرف أو ذاك ، والتي كانت الأخيرة التي نويت أن اقضيها تحت سطح منزلي، غادرت، كئيبة، على دراية مسبقا بأنني منفية، ولكن هادئة إلى بهيمة المنكوبة)). (ص: 28)

نلاحظ أن "نحن" يمكن تذكيرها ليس نحوياً ولكن من وجهة نظر متعلقة باللباس، عندما تتحدث "إيزابيل" عن البرنوس، لباس رجالي (الص: 40) أو عندما تستحضر عملا لا يكون إلا رجاليا كذلك، وحيث أنها مقحمة فيه كما في ((في الكثيب)) حيث هناك مسألة ((ثمانية رجال)). غمز للقارئ أن إشارة "البرنوس" مصحوبة باسم مفعول مؤنث؟

((مخنوقة في برنوسي الذي استمرت الرمال تتهاطل عليه كالمطر، بقيت مستيقظة بسبب صهيل الخوف ورفسات حصاني (...))). ((لم أستطع العودة إلى النوم)). (ص:39)

صيغتان أخرتان مؤنثتان تتبعان، لكن في حوارات النص ذاته، مع رجال التقت بهم كل يرجح للمذكر: ((أنت مسلم... نحن إخوة)) وتتابع الصحافية: ((شعرت بفرحة عارمة أن

وجدت في هؤلاء البدو المريدين من نفس الجماعة المعونة المتبادلة والتضامن وهذا من عادتهم، هم أيضا يحملون في الواقع مسبحة أتباع القادرية)). (ص:43)

المشهد كله يتواصل بصيغة المذكر وتحت العلامات قرائن وأشياء "الصوفي الحقيقي". الحكاية لا يمكن أن تستكمل إلا باعتراف هوياتي من طرف الآخر الذي نريده كأخ:

-ما اسمك؟

-محمود بن عبد الله السعدي.

-اسمع يا، محمود، إذا كنت لا أتخذك، أنا أيضا، أخا، إذالم نكن من قبل بواسطة الشيخ والسبحة، وإذا لم أكن أرى أنك كنت طالبا، سيكون غضبي على طلبك شديدا(ص:46)

يبدو هنا أن المذكر يهدف إلى تعزيز مصداقية المخبر الذي هو الصحافي في عيون القارئ والحصول على معلومة جديدة. ولكن، في الوقت نفسه، أقرت الصحافية أنها اعتمدت من طرف أولئك الذين أرادت أن يكونوا أهلها. كذلك أكدت نهاية القصة أن البدوي أسر لها : ((لقد لفينا في " برانيسنا "(...) هو البدوي.. ، أنا الوحيدة التي رجح حبها)). (ص:55)

في الاختيار نفسه للشخصيات وقصصها و تحقيقاتها، المأخوذة من حياتها أو لقاءاتها الشخصيات التي"تلصق " أكثر بما كانت أو تتطلع أن تكونه هم الرجال. يمكن الوقوف عند ثلاثة أمثلة: بطل روايتها، (المتشرد) *Trimardeur* ؛ الرائد « Le Major » و الثائر « L'Anarchiste » في (في بلد الرمال). فالأمر يتعلق في كل مرة بشباب مثاليين، روس أو فرنسيين، "ديمتري أورشانوف"، و"جاك" الرائد و"أندريه أنطونوف". الأول قام برحلة من بلده الأصلي روسيا إلى ميناء مرسيليا، والاثنان الآخران لأسباب أخرى، ولكن مثله، يجدون أنفسهم في الجزائر.

يكتشفون حياة أخرى في هذا البلد، ولكن تعاطفهم مع الشعب العربي يجعلهم خارج مجتمعهم فيرحلون أو يموتون. بعض من هذه الشخصيات أقرب للكاتبة من غيرها، ولكن الخط الرئيس هو دائماً المرور الصعب بين حضارتين وثقافتين ليس بفعل الفرد ولكن بسبب ضيق ذهنية المجتمعات. إذا كانت "إيزابيل ايبرهارت" رسمت أكثر ببساطة و بمعرفة كبيرة وألفة الأوساط الذكورية الوحيدة التي عرفتها حقيقة، عملها أيضا لم يخل من صور أو ظلال أنثوية. يمكن العثور على ثوابت ثلاثة ينبغي صقلها في دراسة أكثر تفصيلية.

الفرنسيات أو أوروبيات المستعمرة كن مثار تهكم وتحولن إلى سخرية، لا سيما وقت المحاكمة في إقامتها في مرسيليا، وفي كتاباتها في تنس، بما أنها آنذاك كانت أكثر اختلاطا بهم.

النساء الجزائريات ينظر إليهن وهن مهضومات ونادراً متميزات مع الشفقة والعطف الذي يميز نظرة "إيزابيل ايبرهارت" عندما تلاحظ وتصف الشعب المستعمر. إنها ترى مجدهن، كما تشهد أيضا بؤسهن. و أنها معجبة بلباسهن ، حتى وهن بتلك الأسمال. لكن كتاباتها المفضلة عندما تتحدث بشكل مطول و إيجابيا فللنساء المهمشات أو اللواتي يمثلن الاستثناء. صور البغايا وصفن بإنسانية كبيرة وهي عديدة جداً، مما يفسر أيضا بأسلوب حياة "إيزابيل ايبرهارت". إنه وسط كانت قد اختلطت به الذي يعتقد أنه فتنها، بسبب الإهمال والتهميش.

النساء المتميزات، هن المرابطاتles maraboutes . وهكذا فالموجز الذي خصص للالة خادوجة في الجنوب الوهراني، حكاية جميلة قصها عليها با محمادو ومن خلالها تحلم:

((بدوري بدأت أحلم بلالة خادودجة غير المعروفة، والتي تملك روح مغامرة، نظراً لأنها كسرت، من تلقاء نفسها، الروتين الخامل للحياة المنغلقة لمثيلاتها بالذهاب إلى أماكن أخرى من أجل بدء حياة جديدة تحت سماء مختلفة. ماذا حدث في قلب هذه المرابطة الرحالة؟)). (ص:198)

المراة الأبرز هي بطبيعة الحال، لالة زينب من زاوية الهامل في بوسعادة والتي تذكرها في يومياتها: إذا لمعت بسبب غياب صورتها، فهي تنير حياة "إيزابيلا" بفضل تعليمها الذي يظل سرا : ((هذا السفر، سريع كأنه حلم، من بوسعادة، عدت قوية، وقد شفيت من المرض الذي ألم بي في الجزائر العاصمة...)). كتبت في السابع من شهر جويلية 1902، حين عودتها إلى تنس. يفتح هذا المقطع فقرة طويلة عن معنى حياتها البدوية التي هي بحث صوفي: ((هذه الفكرة ستؤدي إلى الاعتقاد بأن الشكل الحقيقي لهذا الكون الكبير إلى الأبد
بعيد المنال وغير معروف...)). (ص:231)

ثمانية عشر شهرا بعد ذلك، في 31 جانفي 1903، دونت "إيزابيل" مرورها ببوسعادة: ((عدنا أمس من الهامل في الساعة الثالثة مساء، بن على وأنا. كل مرة أرى

فيها لالة زينب ، أشعر بنوع من التجديد، الفرح دون سبب واضح للارتياح. لقد رأيتها أمس مرتين في الصباح، كانت طيبة جداً وهادئة جداً بالنسبة لي، وأظهرت فرحة لملاقاتي مرة أخرى. (...) كل-وأنا أيضا-تغير تغيرا جذريا...)) (ص:258-259).

ماذا يمكن القول أكثر؟ "إيزابيل ايبرهارت" كانت بالتأكيد امرأة متمردة ، والتي من استعارتها للزي الرجالي، حركية و حياة طالب مسلم شاب، عثرت على طريقة لتجد نفسها، وراء المتعة لخداع عدد من الناس لأنه يجب أن لا ننسى أننا نتعامل مع امرأة شابه بين العشرين و السابع والعشرين عاماً كانت ساخرة وتحب أيضا صنع الخدع! امرأة متمردة نعم ولكن التمرد كان بالغ الفردية، لا تسعى إلى أن تجعل لنفسها أتباعا، ولا أن تجمع حولها الأعداء، وفية لقاعدة حياة اعتمدتها في مرحلة المراهقة:

((سأذهب وحيدة حتى موتي)). فسر هذا التمرد برفض التقاليد، البحث، الترحال و السفر، بمعنى آخر للحياة والموت اللذان يسكنان كتاباتها، ببحث روحي. تناقض من المؤنث إلى المذكر الذي أردنا أن نتبعه نموج في تعقد ممارستها،لصحة مشوارها الذي يريد في الوقت نفسه العيش على الهامش والعيش في الحقيقة. فبعد أول زيارة لها إلى لالة زينب بزاوية الهامل ذكرنا أنها دونتها في يوميتها، هذا القطع الذي كثيرا ما كانت تذكره، لأنه رمز لما يعتقد فهمه لهذه الشخصية المعقدة:

((بدوية كنت، عندما وأنا صغيرة كنت أحلم وأنا أنظر إلى الطريق، الطريق البيضاء الجذابة التي ذهبت، تحت أشعة الشمس التي لا تبدو أكثر إشراقا، متجهة نحو المجهول الساحر... بدوية وسأبقى حياتي كلها، عاشقة للآفاق المتغيرة للأبعاد التي لم تكتشف بعد، لأن كل سفر، حتى في البلدان الأكثر ارتيادا و المعروفة جدا، اكتشاف)). (ص:231)

خاتمة:

يمكننا أن نقول أنه باعتماد أسلوب حياة الذكورة، دون التخلي عن دورها الأنثوي، والقيام بذلك في ثقافة أخرى، عبرت "إيزابيل ايبرهارت" حقاً حدودا في سياق عصرها. وخلافا لنظيراتها في أوروبا في اعتمادهن ملابس الذكور، أنها اختارت مع الملابس، طريقة أخرى في الحياة، حضارة مختلفة، وروحانية أخرى. الصور الفوتوغرافية التي لدينا عنها، ، تفرق جيدا بين الأبهة والاندماج: لباس الأبهة، يظهر في كثير من الأحيان على غطاء أعمالها أو في شعار المقالات المتصلة بها؛ لباس الإدماج هو

الأكثر تأثيرا لأنها متواضعة وقريبة من الحياة اليومية تلك التي يفسرها "روبير راندو" على أنها الأخيرة أين نراها في لباس أقل روعة وأكثر بداوة تجلس مستندة الجدار، السيجارة في اليد وهي تنظر إلى الأرض.

الهوامش:

1 - *Isabelle Eberhardt*, Textes présentés par Simone Rezzoug, Alger, OPU, « coll. Classiques maghrébins, 1985, p.21 et sq.

2-لقد حفظ مذكراته في كتاب (إزابيل ابرهارت ملاحظات وذكريات) طبعت بالجزائر العاصمة من طرف دار النشر شارلو عام 1945

3 - Cf. la p. 246 des *Journaliers*, datée du 11 décembre 1902 : passage très intéressant sur la nécessité du « travail littéraire ».

4 - Robert Randau, *op.cit.*, pp.177 à 179

5-Ibid, p,38

6- Ibid, p,109,

7 - *Au pays des sables*, éd. Joëlle Losfeld, collection « Arcanes », 2002. Postface de Jean-René Huleu « Autoportrait de l'auteur en cavalier arabe… », p.175.

8- Ibid, p,50

*ميخائيل الكسندروفيتش باكونين (1814–1876) فيلسوف ومنظر روسي ثائر، وضع أسس الاشتراكية التحررية في كتاباته، من مؤلفاته: confession, le socialisme libertaire, liberté, Dieu et l'état

*Robert Randeau اسمه الحقيقي Robert Arnaud (1873–1950) أحد هراطقة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، كاتب له عدة مؤلفات منها: Rabbin , la ville du cuivre, sur Les le pavé d'Alger
Les Colons

رجل أدب فرنسي، صحفي، رحالة ومختص في قضايا الشرق Pierre(1893–1974) Lyautey*

هو حفيد الماريشال ليوتي. الأوسط

الموخازني: مقاتل يعيش في وسط العائلة تحت خيمة في المكان الذي أرسل إليه، يقوم بدور الشرطي إما ممتطيا حصانا أو على قدميه.